حياة امري القيس بين شعره والتاريخ

الدكتور عمر محمد الطالب
كلية الاداب – جامعة الموصل

هو امرؤ القيس (١)، وقيل اسمه حندج . وقيل : عدي ، وقيل مليكة(٢).
وله غير كنية : أبو وهب ، أبو زيد ، أبو الحارث .. وكان يقال له : ذو القروح ، والملك الضليل .

وأمه ، فاطمة بنت ربيعة بن الحرث بن زهير أخت كليب ومهلهل ابني ربيعة التغلبيين. وقال من زعم أنه امرؤ القيس بن السمط : امه تملك بنت عمرو بن زبيد بن مذحج رهط عمرو بن معد يكرب ، واستدلوا بقول امري القيس :

ألاهل أتاها والحوادث جمة بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا

وقال ابن السكيت : أم حجر أبي امريْ القيس أم قطام بنت سلمةامرأة من عنزة (٣). ونحن نرى الرأي الأول في نسبه من أمه فقد تواتر ذلك عن الرواة ومؤرخي الأدب .هذا بالاضافة إلى ماعرف عن امريْ القيس من أنه أخذ الشعر عن خاله المهلهل بن ربيعة .

قال ابن السكيت . ان امرأ القيس ولد ببلاد بني أسعد ، وقال: ابن حبيب: كان ينزل المشقّر من اليمامة . ويقال : كان ينزل حصن البحرين .

نشأ امرؤ القيس على ماتنشأ عليه ابناء الملوك في ذلك العصر من تعلم الفروسية والنجدة والشجاعة . وكان كثير التردد على أخواله في بني تغلب فتعلم الشعر

(١) ومعناه رجل الشدة وانشدوا: وانت على الاعداء بأس ونجدة والطارق العافي هشام ونوفل
(٢) المزهر جـ ٢ ٢٦٥
(٣) الاغاني جـ ٩ ص ٧٧.

من خاله امريْ القيس بن ربيعة الملقب بالمهلهل، وقد برز امرؤ القيس في الشعر وهو مايزال في عنفوان شبابه فكان يعترض فتيات بني أسد ويغازلهن ويشبب بهن، فبلغ أمره إلى أبيه وكان ذلك مما لايرضى به ملوك العرب في ذلك الزمن فنهاه فلم ينته فأمر والده مولى يقال له ربيعة أن يذهب به فيذبحه ويأتي اليه بعينيه. فأخذه ربيعة واحتفظ به في مكان ، ثم ذبح جؤذراً وجاء بعينيه إلى أبيه فندم حجر على ذلك وأظهر الحزن والأسف ، فقال له ربيعة: أبيت اللعن، إني لم أقتله. فقال له جئني به الآن. فلما جاءه نهاه عن قول الشعر فامتثل ، غير انه كان محباً للهو واللعب مولعاً بمغازلة النساء ومفاكهتهن فكان ذلك مما ينزع به إلى قول الشعر ، فكان يقرض الشعر واصفاً ومتغزلا وناسباً وباكياً فبلغ ذلك أباه فطرده. فذهب شريداً فريداً لايدري ماذا يصنع . ثم صار يجمع اليه طائفة من الصعاليك والفقراء من أحياء طيْ وكلب وبكر. وأخذ ينتقل بهم في منازل العرب ويغير بهم على أحيائها ويقاسمهم ماتناله أيديهم من غنائم الغارة والسطو، أو مايقع لهم من الصيد. ثم يذهب بهم إلى المناهل والغدران والرياض فيذبح لهم ويؤاكلهم ويعاقرهم الخمر ويلاعبهم النرد وينشدهم الشعر وتغنيهم قيانه اللائي كان يستصحبهن للهوه ومرحه(١). وقال ابن قتيبة : إن أباه كان قد طرده لما صنع في الشعر بفاطمة ماصنع وكان لها عاشقاً (٢). وزعم بعض الرواة أن أباه إنما طرده لأنه كان يتعشق امرأة أبيه المسماة هرّ (٣). وذكر الأصمعي : إن امرأ القيس كان قد صحب عمه شرحبيل قتيل يوم الكلاب ، حتى قتل شرحبيل ، وكان امرؤ القيس رأى من أبيه جفاءاً فلحق بعمه حتى قتل أبوه وقتل عمه فانصرف بعد مقتلهما إلى قومه (٤).

---

(١) شرح ديوان امرىء القيس ص ٨-٩
(٢) الشعر والشعراء ص ٥١
(٣) شرح ديوان امريء القيس ص ٨ هامش (١).
(٤) شرح السبع الطوال الجاهليات ص ١٣

وإذا أمعنا النظر في الرواية الاولى وجدناها غير مقبولة لأن العرب أحبو الشعر وعظموا الشعراء . واحتفلوا بمولد شاعرفيهم . لأنه اللسان الصاح بمفاخرهم وايامهم والسيف المسلط على رقاب اعدائهم وكشف معايبهم وسوءاتهم

إن الفخر والاعتزاز هو الذي يفترض أن يتملك نفس الملك حجر بمول ابنه الشاعر امري القيس وليس العكس كما ثبتته الرواية . وهي كما يبدو لي متأثرة بالاسطورة والحدث كما عرضته الرواية الأولى شبيهة بأسطور أوديب عندما كان طفلا (١) . وقد اختلط الواقع بالاسطورة في هذه الروايا حتى طفت الاسطورة وامحت الحقيقة . والرواية الثانية مردودة لأنه لايعقل أن يفعل عربي بابنة عمه مافعله امرؤ القيس بابنة عمه فاطمة أو عنيزة (٢) ولا تعقل الرواية الثالثة لأن أخلاق العرب تأبى ذلك وان كان من مذاهب العرب . ان أكبر أبناء الرجل له أن يرث أباه في زوجته بعد وفاته ، فإن شاء تزوجها بعده وإن شاء زوّجها من غيره وان شاء منعها حتى تموت . وهذا هو زواج المقت الذي حرمّه الاسلام. كما وان امرأ القيس كان يافعاً بحسب ما يستنتج من الرواية ، وانه في بداية قوله الشعر فلا يعقل أن يحدث هذا الأمر وان هرّآ التي وردت في شعره لم تكن هرّآ زوجة أبيه بل هي امرأة أخرى (٣).

أما الرواية الأخيرة فلم تذكر سبب الجفاء وان كنا نتفق معها بأن امرأ القيس قضى فترة يفاعته وصباه وفتوته في ديار عمه شرحبيل .

ونحن نرى امرأ القيس في طفولته ويفاعته وشبابه من خلال شعره، صبيا قد فقد امه: ونشأ في قصر ملك . والملك الوالد مشغول عن أهل بيته بمشاكل الملك. وجباية الأموال من الرعايا والتسلط والجور . وتحقيق الطاعة والهدوء

---

(١) ينظر الى الاسطورة والرمز في الادب الجاهلي،عادل البياتي من كتاب الشعر والمجتمع ص ١٠٧. ١٠٨

(٢،٣) ينظر رحلة فيمعلقة امرىء القيس. عمر الطالب، مجلة المجتمع العلمي العراقي ، مجلد ٢٩، ١٩٧٨

في القبائل التي يحكمها ولا سيما قبيلة بني أسد حيث كانت له عليهم أتاوة موقوتة في كل سنة يرسل اليهم بجابيه الذي كان يجبيهم. وكان لحجر نساء كثيرات يقضي معهن ما تبقى من وقته بعد تعب الملك وعناء السلطة. ولم يكن يهمه أمر أولاده في هذا البيت الذي يسوده الوقار وتتحكم فيه السلطة وينبعث منه الجبروت والقسوة، وتحيطه الأبهة والفخار (١) ، ترعرع امرؤ القيس ذكي الفؤاد جميل الخلقة. يجد الحب والحنان في داخل القصر بل وجدهما بين اقرانه الصبيان، ولم يحس الفخامة في القصور والملك بل أحسها في عظمة الطبيعة وبهائها ولم يجد في الوقار والعظمة اللتين تحيطان بأبيه غير القسوة والتسلط والدماء. فكره القصر والملك . وأحب بساطة الطبيعة وعطاءها وحنانها فنفر من القصر الذي كان يبدو له كسجن رهيب الى رحاب الطبيعة الممتدة المتدانية المعطاء ، واستبدل دسائس ومؤامرات القصر والكره والبغض اللذين يحيطان به بوداد الصحب وأنس العشير وبراءة الحب المتدفق من قلوب صحبه الصغار

عهدتني ناشئا ذا غرّة مرّجل الجمّة ذا بطن أقب
أتبع الولدان أرخي مئزري إبن عشر ذا قريط من ذهب
وهي إذاك عليها مئزر ولها بيت جوار من لعب (٢)

هذا هو امرؤ القيس ابن عشر سنين تبدو عليه النعمة في غرته وشعره المرجل وقرطه الذهبي الذي يدلل على أصله وانه من بيت ملك وجاه ولكنه كان مهملا يقتفي آثار ابناء القبيلة من دون رادع يردعه في ذلك لأنه لم يكن عالما بعناية الوالدين وسعيهما لتهذيبه واعداده للمهمة الصعبة التي تنتظره كابن ملك. وانما هو يسعى مع الصبيان كما يسعون ويتخلق بأخلاقهم ويحاربهم في لعبهم ولهوهم من دون رادع خارجي ولاوازع داخلي وكأنه يجد فيهم العوض عما افتقده في القصر حيث الوحشة والكره والتسلط والدماء . فاراد

(١) امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة، ص ١٣
(٢) شرح ديوان امريء القيس ص ٥٥

أن يطهر نفسه من رجس اللعنة التي تلف القصر والملك فسعى مع البراءة والحب واللعب ، يتبع الصبيان سعيداً وقد أرخى مئزره. وربما تلوثت ثيابه بالرمل . راخت جمته واضطربت بعد ترجل «إن ارخاءه لمئزره ذو دلالة معنوية بقدر ماهو ذو دلالة مادية .فهو قد أرخى مئزر نفسه ايضا. لان الفتى الذي يحتضنه والداه ويعدانه اعدادا خاصاً. تقام دونه حدود تربوية تمنعه من أن ينساق انسياق الآخرين» (١).

لقد دفعه سحر الطبيعة وجمالها وألفة الصحب ومرحهم ونباهة الفؤاد ويقظته وتفتحه على الجمال الكامن في المرأة والطبيعة ودفء الألفة وحنان الأم الرؤوم المتمثل في الطبيعة ،وتفقده لهذا الحنان ،الا في الصحبة والالفة والتأمل بعد أن حرم حنان الابوين بفقد الام وانشغال الأب ،دفعه كل ذلك الاحساس وتلك المشاعر الى قول الشعر والتغني به ،حيث قال من أول شعره:

أذود القوافي عني ذيادا ... ذياد غلام جريء جوادا
فلما كثرن وعنّينه ... تخيّر منهن ستاجيادا
فاعزل مرجانها جانبا ... وآخذ من درها المستجادا (٢)

هذا الصبي اليافع العاشق للطبيعة والشعر والفروسية الذي افتقد المثال في ابيه الجبار حجر فوجده في خاله الفارس الشجاع الشاعر المهلهل بن ربيعة لم يحترم أباه كثيراً لأنه لم يجد فيه مناقب الفرسان بل تسلط الملوك وجبروتهم، فكره القصور والعروش بقدر ماأحب الطبيعة ،والحرية من أسر العرش وسجن القصر وكأني به يهزأ بوالده ولايقيم للملك الذي يحتقره وزنا وربما عرّض بالملك وبأبيه في شعره وهذا أخشى مايخشاه الملوك ورؤساء القبائل في عصر ما قبل الاسلام حيث ينتشر الشعر بين القبائل كانتشار نسيمات

(١) محاضرات في تاريخ العرب ص ٨٧ -٨٨

(١) شرح الديوان ص ٦٣ ورويت هذه الابيات لامرىء القيس بن بكر بن امرىء القيس بن حارث الكندي، مصادر الشعر الجاهلي ص ٢١٩ .

الصبا وشذى ازهار الربيع . روى أبو نصر احمد بن حاتم قائلا: اخبرنا عن الاصمعي انه قال :بينا امرؤ القيس قاعد ذات يوم وهو يشرب مع أبيه وهو غلام حين احتلم . وابوه يشرب مع ندمائه وفتية من أهل بيته اذمرّ عليهم الساقي بالكأس فقال امرؤ القيس :

أسقيا حجرا عـــلى علاته من كميت لونـها لون العلق

فسمعه ابوه فقال للساقي :الطم وجهه واخرجه عني .وقال له :اياك أن أسمعك تقول الشعر فأقتلك » (١) .

ويجدر بناأن نتساءل :لماذا حذره والده من قول الشعر ؟!وقد كان الشعر فخر القبيلة ومولد شاعر فيها .مولد حدث كبير تبتهج به القبيلة وتقيم له الأفراح وتعلن عنه ويذهب خبره بين القبائل والبشر .ان الذي دفع حجرا لمنع ولده عن قوله الشعر يكمن في الشعر نفسه لافي ترفع حجر عن الشعر وطلبه الى ولده أن يترفعوا عنه (٢). لان هذايخالف ماتعارف عليه العرب قبل الاسلام. انه التعريض الذي يكمن في البيت .انه يبيح ان يسقى حجر الخمر على علاته ترى ماشي علاته ؟!. وهل يدركها أحد كما أدركها امرؤ القيس وخبرها. ان هذا التعريض الصريح هو الذي أغضب صخراً وأخافه انه يعرّض به وهو مازال يافعا ترى ماذا سيقول عنه اذا ماشب عن الطوق؟ وأية مهانة ستلحق به من ولده اذا ماستكمل ادواته الشعرية وسارت قصائده بين القبائل؟ وكأني به أدرك بأن ولده يرفض بطشه وجبروته وسيطرته وانه لايسعى الى الملك قدر سعيه للحرية والانطلاق والحب والجمال تلك الخصائص التي علمته اياها الطبيعة وألفة الصحب وانطلاقة الحياة. فكره سجن القصر وقيد العرش وجبروت الملك وسيطرة التسلط فخشي ان يفضحه ولده بين القبائل وهو الذي خبر ملكه وعرف بطشه وكره يديه الملطختين بالدماء وهو الجبار المتسلط اذن ليكم فاهه كما كمّ افواه رعيته. ولكنه كان قاصرا

(١) ديوان امرىء القيس ص ١٩٨

(٢) م . ص

أن يدرك ان الحب اقوى من الكره وان الحرية أرحب من التسلط ولن يستطيع اسكات الصوت الناشد للحب والحرية . ويمضي ابو نصر احمد ابن حاتم في روايته عن الاصمعي قائلا فغير امرؤ القيس بذلك زمانا فكان لا يقول الشعر الا سراً مخافة أبيه فبينا أبوه ذات يوم نائم في قبته وقد شرب حتى طابت نفسه إذ انتبه وامرؤ القيس يشرب من فضل آنية أبيه وهو يقول:

أحار ابن عمرو كأني خمر ... ويغدو على المرء مايأتمر (٢)
فلا وأبيك ابنة العامري ... لايدعي القوم أني أفر
تميم بن مرّ واشياعها ... وكندة حولي جميعا صبر
اذا ركبوا الخيل واستلئموا ... تحرقت الارض واليوم قرّ
ومرّ تصيد قلوب الرجال ... وأفلت منها ابن عمرو حجر

* * * *

رمتني بسهم أصاب الفؤاد ... غداة الرحيل فلم أنتصر
فأسبل دمعي كفيض الجمان ... أو الدرّ رقراقه المنحدر
وإذ هي تمشي كمشي الزريف ... يصرعه بالكثيب البهر
برهرهة رودة رخصة ... كخرعوبة البانة المنفطر
فتور القيام قطيع الكلام ... تفترّ عن ذي غروب خصر
كأن المدام وصوب الغمام ... وريح الخزامى ونشر القطر
يصلّ به برد أنيابها ... اذا طرب الطائر المستحر
فبت أكابد ليل التمام ... والقلب من خشية مقشعر
فلما دنوت تسديتها ... فثوبا نسيت وثوبا أجرّ
ولم يرنا كالئ كاشح ... ولم يفش منا لدى البيت سر
وقد رابني قولها ياهناه ... ويحك الحقت شرا بشر
وقد اغتدي ومعي القانصان ... وكل بمربأة مقتفر

(١) الديوان ص ١٩٤
٢) شرح الديوان ص ٧٧-٨٣

أن اشدما يعاني منه الانسان الخضوع للجور والأوامر . وامرؤ القيس يتحدى والده في مطلع القصيدة ويخرج على أوامره ونواهيه. ويقول الشعر الذي نهاه عنه مترنما بعظمة كندة وقوة شكيمة فرسانها وحرارة رحى الحروب التي يخوضها رجال كندة.

ويقرن الشاعر بين صراع الحروب وصراع حبه لهرّ وهرّ هذه وكانت من القيان اللائي يغشين قصور الملوك ليطربنهم ويأخذن جرزهم اي عطاءهم ومع ذلك يحاولن ان يوقعهن في شركهن» (١). فهي تتصيد قلوب الرجال كما يتصيد الهر قطعة اللحم، وعلى الرغم من مهارة هرّ في الصيد أفلت منها ابن عمرو حجر والد الشاعر.

ويمضي الشاعر في وصف مغامرته معها عندما انقلب الهر الى مصيد والشاعر الى صائد ، ثم قرن الشاعر بين صيده لهر وقصة الصراع الرهيبة بين الكلب الصائد والثور الطريد ، ووصف مايلاقيه في ترحاله وتجواله على ناقته من كد وتعب ومتعة وبهجة.

ويمضي ابن حاتم في روايته قائلا: « فوثب اليه ابوه، فجعل يجأفي عنقه حتى أدمى منخريه ثم طفق يلطمه ويقول: ألم أنهك ان تقول شعرا وعن أن تذكرني في شعرك ثم دعا مولى له يقال له ربيعة.وكان حاجبه فقال له انطلق بهذا الى موضع كذا وكذا فاقتله فاني لاأظنه الاّ سيشتمنا، وجثي بعينيه فانطلق ربيعة فاستودعه رأس جبل منيف». (٢) لماذا أغضب شعر امرىء القيس حجرا ألأنه يخشى اذا ماشاع شعره وانتشر وسارت به الركبان سيشتمه؟! ولهذا السبب يمنعه من ذكره في شعره؟ أم لانه استشف من البيتين الاول والثامن تعريضا به على الرغم من خفته،لايليق بمنزلة الملك، فخشي إن هو لم يردعه عن ذكره في شعره أن يتطاول عليه وعلى ملكه فتسقط هيبته بين رعيته. هو الجبار المتسلط. فوصلت به سورة الغضب حدها بأن

(١) شرح الديوان ص ٧٨
(٢) الديوان ص ١٩٤

طلب الى حاجبه أن يأخذه الى مكان ثان يقتله فيه ويأتيه بعينيه تخلصا منه ومن شعره الذي يظن به حجر الظنون؟

وهنا يجدر بنا ان نتساءل لماذا هذا الجفاء بين حجر وولده؟ نعتقد ان الامر يقف عند حدود طبيعة امرىء القيس الرقيقة العذبة الكارهة لكل جبروت وتسلط وعشقه للحرية التي علمته اياها الطبيعة الجميلة الفسيحة على مرمى النظر . وتربيته التي اكتنفها الاهمال في طفولته واتباع الصبيان في صباه . وحبه للهو والمتعة والصيد والفروسية في يفاعته. كل ذلك نفره من الابهة والعظمة اللتين تحيطان بالملك فأحب البساطة والانطلاق. وكرهه من الطغيان والتسلط وسجن القصر وقيود العرش مما أزعج والده منه الذي كان يريد من ولده الطاعة والاذعان والسير في ركاب الملك والابتعاد عن الرعية والظهور أمامهم بمظهر الجلال والعظمة لتستتب السيطرة على الرعية ويحكم الخناق عليها . فوصل به التغضب منه حد الأمر بقتله. أليست هذه منتهى القسوة والغلظة التي اتسم بها حجر وشيعت عنه. وعلم ربيعة ان حجراً سيندم على قتله اذا هو صحا من سكره فعمد الى جؤذر كان عنده فذبحه وانتزع عينيه فاحتملهما الى حجر. فقال له حجر أقتلته؟ قال: نعم. قال: فأين عيناه؟ قال: هاهما هاتان. فوقعت الندامة على حجر وهم بقتل ربيعة. فلما رأى ربيعة ذلك قال: أبيت اللعن! اني استودعته ولم أقتله . قال فأين هو؟. قال: في موضع كذا وكذا على رأس الجبل. قال: فأتني به فانطلق ربيعة الى امرىء القيس فوجده حيث خلفه. وسمعه وهو يقول وظن أنه قاتله :

لاتسلمني ياربيع لمهلكه ... وكنت أراني قبلها بلك واثقا
مخالفة نوى أسير بقريحة ... نوى عربيات يشمن السمبوارقا
فاما ترني اليوم في رأس شاهق ... فقد اغتدي أقود أجرد تاقا(١)

(١) الديوان ص ١٩٥

وعلى الرغم من شكنا في هذه الرواية المتأثرة بالأساطير، فاننا نلمس فيها حقد الاب الجبار والملك المتسلط على ولده المتحدي. ونجد في أبيات امرىء القيس حبه للحرية والصيد والانطلاق. فقد تشرب الفروسية وتشربته الحياة.

عاد امرؤ القيس الى والده. تبدو عليه الطاعة في الاقلاع عن قول الشعر ومصاحبة الفتيان ولكن عشق الحرية قد تسربت في دمه وروح الفارس قد تملكته. فانطلق في ممارسة الشعر مع شاعر بني أسد عبيد بن الابرص الذي وجد فيه امرؤ القيس استاذاً يعلمه بواطن الشعر وسحر فنونه وما لبث التلميذ أن فاق استاذه وعلا عليه في الشعر وفنونه وقوافيه. (١) وعندما أحس امرؤ القيس بتفوقه في الشعر على شعراء قبيلته والقبائل الأخرى. راح ينازع الشعراء ويتعرض لهم. (٢) ومضى شعره يتهادى كالنسائم في الصحراء الفسيحة فعاد النزاع مجدداً بينه وبين أبيه. وقد يكون الامر وصل الى الحد الذي طرد الأب ولده ، وكأن الابن الذي تشرب الحرية كان ينتظر هذه اللحظة فانطلق في الصحراء مع الشباب من صحبه لاهيا منطلقاً، يعيش حياته التي سعى اليها دائماً، حياة ابناء الملوك اللاهين في الصيد والخمر والنساء والفروسية انها الحياة المثلى للعربي قبل الاسلام. ويظهر من خلال شعره في هذه الفترة من حياته انه كان يسعى مع صحبه الى الصيد، فما ان يصيبوا الصيد حتى يعدوا المائدة العامرة والخمر الوافر: يحيط بهم الخدم والطباخون كحالة اولاد الملوك، تغنيهم القيان فيشربون ويطربون.. وخير من يجسد هذه الحياة اللاهية، حياة الأنس والبهيمة والسعادة، الحياة التي أحبها امرؤ القيس وعاشها بكل ابعادها في مطالع شبابه. فكانت مغامراته مع ام الحويرث وام الرباب وبيضة الخدر، والمرح الملذ الذي استمتع به في دارة جلجل مع عنيزة وصويحباتها ومغامراته مع سلمى في بيتها من دون

(١) ينظر المحاورة بين امرئ القيس وعبيد بن الابرص الديوان ص ٩٥ – ٩٧

(٢) ينظر/ شرح الديوان ص ٨٧ – ٨٩

خوف او وجل من زوجها (١) ولمغامراته مع المرأة التي سعت اليه متلهفة مشوقة :

ومنهن سوف الخود قد بلهـا الندى ... تراقب منظوم التمائم مرضعا (٢)
يمز عليها ريبتي ويسـوءهـا ... بكاه فتثني الجيد ان يتضـوعا
بعثت اليها والنجوم ضـواجع ... حذارا عليها أن تـهب فتسمعا
فجاءت تطوف المشي هيابة السرى ... يدافع ركناها كواعب أربـعا
يزجيها مشي العريف وقد جرى ... صباب الكرى في مخها فتقطعا
تقول وقد جردتها من ثيابـهـا ... كما رعت مكحول المدامع أتلعا
وجدك لو شيء أتانا رسولـه ... سواك ولكن لم نجد لك مدفعا
تصد عن المأثور بيني وبينها ... وتدني على السابـريّ المضلعـا
اذا أخذتها هزة الروع أمسكت ... بمنكب مقدام على الهول أروعا

تعد هذه القصيدة نموذجا لحياة امرىء القيس اللاهية في شبابه فهو المعشوق لا العاشق، وهو الذي يسعى اليه لاالساعي، وهو المرغوب دائما، حتى من النساء الحرائر والزوجات المصونات وذوات الاطفال. ان عاطفتهن تجاهه أقوى من عاطفة الامومة (٣) وعلى الرغم من المبالغة في عرض المغامرة تلك المبالغة التي يمارسها الشعراء في ذلك العصر، فهي مناسبة لواقع البيئة الصحراوية قبل الاسلام، ومناسبة لشاب جميل شجاع غني وابن ملك. ملك فصاحة اللسان وقوة السيف، ومناسبة أيضا لواقع حياة اللهو التي كان يحياها أولاد الملوك، فكيف اذا كان هذا الشاب لايستبدل لحظة متعة وانس بكل عروش الملوك.

جاب امرؤ القيس شبه جزيرة العرب متنقلا من مكان الى آخر طلبا للصيد

---

(١) شرح الديوان ص ١٣٨ — ١٤٢

(٢) م. س ص ١١٢ — ١١٣

(٣) ينظر عمر الطالب «صراع الحياة والموت في شعر امرىء القيس»، مجلة آداب الرافدين، العدد ٩، ١٩٧٨ عمر الطالب رحلة في معلقة امرىء القيس مجلة المجمع العلمي، المجلد ٩، ١٩٧٨

واللهو والمتعة ومعه صحبه واحبابه يتشرب الحياة كأسا دهاقاً حتى الثملة. وكم من مرة ارتحل الى ممالك اعمامه وكان يرتاح الى عمه شرحبيل، الذي كان يحبه ويرعاه أيضا .وربما كان السبب في هذا الميل الى عمه حبه لابنته فاطمة، فقد بدت من خلال معلقة امريء القيس مكتملة الخلق والخُلق. لذا تعامل معها بشكل خاص يختلف كل الاختلاف عن تعامله مع النساء الاخريات اللاتي ذكرهن في شعره .ولايبدو أن فاطمة كانت تميل اليه وأدرك الا أمل في اجتذابها إليه .فقد كانت فتاة رزينة عاقلة تتصرف كابنة ملك وربما أخذت على امريء القيس تحديه وطيشه كما كانت تراه من خلال تربيتها الخاصة المترمتة والالبني بها .وربما أدى هذا الحب الفاشل الى صدور امريء القيس في حياته اللاهية التي تحددت بعناصر الرجولة عند البدوي قبل الاسلام المتمثلة في المرأة والفروسية والخمر والصيد . وكان امرؤ القيس أشجع اخوته واقرانه وأكثرهم حضورا في مجالي الفروسية والصيد (١).وهذه الرواية تجسد لنا شجاعته وفروسيته كان يتصيد مع اخوته ، فاغار عليهم المنذر بن النعمان ابن امريء القيس الملقب بذي القرنين لثأر كان له عند أبيهم فأصاب اثني عشر شابا من بني حجر بن عمرو وافلت امرؤ القيس على فرس شقراء ، فطلبه القوم وفاتهم . وأمر المنذر بضرب اعناقهم . فقتلوا عند جفر الأملاك وهو موضع بظاهر الحيرة به دير بني مرينا فقال امرؤ القيس يرثيهم (٢).

الا ياعين بكّي لي شنينا ... وبكّي لي الملوك الذاهبينا
ملوكا من بني حجربن عمرو ... يساقون العشية يقتلونا
فلو في يوم معركة أصيبوا ... ولكن في ديار بني مرينا
فلم تفصل جماجمهم بدور ... ولكن بالدماء مر مّلينا
تظل الطير عاكفة عليهم ... وتترع الحواجب والعيونا

ومضى امرؤ القيس يحيا الحياة التي كان يريد، وقد تجسدت هذه الحياة

(١) ينظر المصدران السابقان
(٢) شرح الديوان ص ١٩٠

في شعره الذي طرقه بعد مقتل والده في الذكريات الكثيرة التي تداعت في قصائده .

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط الزبور في العسيب اليماني (١)
ديار لهند والرباب وفرتنا لياليا بالنّعف من بدلان
ليالي يدعوني الهوى فاجيبه وأعين من أهوى اليّ روان
وإن أمس مكروبا فيارت بهمة كشفت إذا ماالسود وجه الجبان
وإن أمس مكروبا فياربّ قينة منعّمة أعملتها بكسران
لها مزهر يعلو الخميس بصوته أجشّ إذا ماحرّكته اليدان
وإن أمس مكروبا فياربّ غارة شهدت على أقبّ رخو اللّبان
على ربذ يزداد عفواً إذا جرى مسحّ حثيث الركض و الذّألان
ويردى على صمّ صلاب ملاطس شديدات عقر لينات متان
وغيث من الوسمي حُو تلاعه تبطنته بشيظم صلتان

هذه هي الحياة التي عاشها امرؤ القيس في ابّان شبابه ، النساء والفروسية والسعي وراء الغدران والعشب على فرس قوي كان قريناً له في تجواله وصيده ومجالس الأنس والطرب التي يعقدها بحضور اصحابه وقيانه يغنين ويضربن على المزهر والعود .

ولكن الحياة لم تمض بهذه السهولة على امرئ القيس فقد قتل عمه الحبيب شرحبيل في يوم الكلاب ، وكاد أن يصيب أهله الضرّ لولا أن قام عوف ابن شجنة بن الحارث في بني سعد وبني عوف دون عياله فيمنعونهم وحالوا بين الناس وبينهم ودافعوا عنهم حتى ألحقوهم بقومهم و مأمنهم، وكان بنو حنظلة تخاذلوا عنهم. فقال امرؤ القيس يمدح بني عوف(٢) :

أحنظل لو حاميتم وصبرتم لأثنيت خيراً صالحاً ولأرضان
الا أن قوماً كنتم أمس دونهم هم استنقذوا جاراتكم آل غدران

(١) م.س ص ١٨٦ - ١٨٧
(٢) م.س ص١٨٩

ثياب بني عوف طهارى نقيـــة وأوجههم عنـد المشاهد غُرّان
عوير و من مثل العويرو رهطـه وأسعد في ليل البلابـل صفـوان
هم أبلغوا حيّ المضلل أهلهـــم وساروا بهم بين العراق ونجران
فقد أصبحوا والله أصفاهـم بـه أبرّ بميثاق وأوفى بجيران

وقد كان امرؤ القيس وسيماً جميلاً (١). ذكياً في حدة خاطر وسرعة بديهة ويستدل على ذلك من محاوراته الشعرية الآنفة الذكر مع عبيد بن الأبرص والتوأم اليشكري وغيرهما . غير انه لم يذكر لنا في شعره شيئاً عن زوجاته وولده، ونحن لانجد في كتب الأدب غير روايات ثلاث عن زواجه أولاهما(٢). يبدو أنهـا حدثت قبل مقتـل والـده مفادها « أن امرأ القيس آلى باليّة لايتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين . فجعل يخطب النساء فإذا سألهن عن هذا قلن أربعة عشر فبينما هو يسير في جوف الليل إذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنها البدر ليلة تمامه فأعجبته ، فقال لها : ياجارية ما ثمانية واربعة واثنتان ؟ فقالت : اما ثمانية فأطباء الكلبة . وأما أربعة فأخلاف الناقة واما اثنان فثديا المرأة. فخطبها إلى أبيها فزوجه إياها . وشرطت هي عليه أن تسأله لياة بنائها بها عن ثلاث خصال فجعل لها ذلك ، وعلى أن يسوق إليها مائة من الأبل وعشرة أعبد وعشر وصائف وثلاثة أفراس ففعل ذلك» (٣).. وتمضي الرواية قائلة : بأن امرأ القيس أرسل إلى خطيبته نحياً من سمن وآخر من عسل وحلة مع عبد له، فما أن وصل العبد إلى غدير مـاء حتى نشر الحلة فانشقت وطعم أهل الغدير من السمن والعسل فنقصا، ثم وصل العبد إلى ديار الخطيبةوسلم اليها الهدية فأعلمته ان يخبر سيده بكلام استشفّ منه امرؤ القيس ان العبد قد عبث بالهدية . فعفا عنه امرؤ القيس عندما أوجد العبد التبرير المناسب .ثم ساق مائة

(١) أمير الشعراء ،في العصر القديم ص ٩٤، انظر / عمر الطالب، المصدرين السابقين
(٢) وسنورد في هذا البحث خبري الروايتين عن زواجه
(٣) الاغاني جـ٩ ص ١٠١ ١٠٣

من الأبل وخرج نحوها ومعه الغلام، فنزلا منزلاً . فخرج الغلام يسقي الابل فعجز فأعانه امرؤ القيس ، فرمى به الغلام في البئر فخرج حتى أتى المرأة بالابل وخبرهم بأنه زوجها . وعندما اختبرته عرفت انه ليس امرأ القيس خطيبها . ومرّ قوم بقرب البئر فاستخرجوا امرأ القيس ، فرجع إلى حيّه فاستاق مائة من الابل وأقبل على خطيبته . فقيل لها قد جاء زوجك . فقالت : «والله ماأدري أهو زوجي أم لا ولكن انحروا له الجزور فأطعموه من كرشها وذبنها . فلما أتوه بذلك قال : أين الكبد والسنام والملحاء ! فأبى أن يأكل . فقالت : اسقوه لبناً خازراً . فأبى أن يشربه وقال :فأين الصديف والرثيئة! .فقالت : افرشوا له عند الفرث والدم فأبى أن ينام وقال : افرشوا لي فوق القلعة الحمراء واضربوا عليها خباء . ثم أرسلت اليه : هلمّ شريطتي عليك في المسائل الثلاث . فأرسل اليها أن سلي عما شئت . فقالت : مم تختلج شفتاك ؟ قال : لشربي المشعشعات ، قالت فمم يختلج كشحاك؟ قال: للبسي الحبرات . قالت : فمم تختلج فخذاك؟ قال: لركضي المطهمات. فقالت: هذا زوجي! فعليكم به واقتلوا العبد فقتلوه. ودخل امرؤ القيس بالجارية» (١). وعلى الرغم من شكنا في هذه الرواية . فهي أول رواية تتحدث عن زواج امرؤ القيس. وسبب الشك فيها يعود إلى أمور عدة؛فقد ذكرت، الرواية أنها طفلة كان يحملها والدها ، ولا يعقل أن يتزوج شاب كامرىء القيس طفلة أو يحب طفلة . كما اختلطت الاسئلة الثلاثة باسطورة أوديب عندما قابل الهولة على مشارف طيبة وهي أسطورة معروفة وشائعة . ومما يشكك في الأمر أيضاً مسألة العبد الخائن، فكيف يصطحبه امرؤ القيس معه وقد عرف خيانته وجحوده ، وارتبطت قضية رميه في البئر بقصة يوسف ، وهي قصة روتها التوراة وتناقلها اليهود والنصارى في شبه الجزيرة العربية . وثالثة الاثافي ، كيف لم تعرف فتاة خطيبها وكانت قد رأته من قبل واشترطت عليه شروطاً مقابل امتحانه لها ؟ فهي تخلط بين العبد وبينه في الحالين ولا

(١) الاغاني ج٩ ص ١٠١ ، ١٠٣

تتعرف عليه إلاّ بعد اختباره وفوزه بها بعد الاجابة عن اسئلتها . ويبدو ان هذه الرواية من تدبيج الرواة لتزجية الوقت عند السمر والحصول على الجوائز والعطايا من الخلفاء ولكنها تبقى الرواية الوحيدة المتوافرة عن زواج امرئ القيس قبل مقتل ابيه . ونحن نعتقد بأن امرأ للقيس قد تزوج بأكثر من امرأة لما يحس به من صبوة ودنف بالنساء. ولمنزلته الاجتماعية وغناه، وفروسيته وجماله وتفوقه في الشعر على شعراء عصره، وهي صفات تتجسد في الرجل المثال لعصر ماقبل الاسلام .

وتجمع الروايات على ان :امرأ القيس بقي على تشرده إلى ان قتل والده. وقال ابن السكيت: ولما طعن الاسدي حجراً ولم يجهز عليه أوصى ودفع كتابه إلى رجل وقال له: :انطلق إلى ابني نافع — وكان أكبر ولده — فأن بكى وجزع فأله عنه . واستقرئهم واحدا واحداً حتى تأتي امرأ القيس — وكان أصغرهم — فأيهم لم يجزع فادفع اليه سلاحي وخيلي وقدوري ووصيتي. وقد كان بينّ في وصيته من قتله وكيف كان خبره، فانطلق الرجل بوصيته إلى نافع ابنه، فأخذ التراب ووضعه على رأسه ثم استقرأهم واحدا واحداً فكلهم فعل ذلك . حتى أتى امرأ القيس فوجده مع نديم له يشرب الخمر ويلاعبه بالنرد فقال له: قتل حجر. فلم يلتفت إلى قوله، وأمسك نديمه . فقال له امرؤ القيس : اضرب فضرب .حتى اذا فرغ قال : ماكنت لأفسد عليك دستك ثم سأل الرسول عن أمر أبيه كله فأخبره فقال : الخمر علي والنساء حرام حتى أقتل من بني أسد مائة واجزّ نواصي مائة . وفي ذلك يقول :

أرقت ولم يأرق لما بي نافع ... وهاج لي الشوق الهموم الروادع (١)

وقال ابن الكلبي « فأتاه — امرؤ القيس — خبر أبيه ومقتله وهو بدمون من أرض اليمن، أتاه به رجل من بني عجل يقال له عامر الأعور أخو الوّصاف فلما أتاه بذلك قال:

تطاول الليل على دمّون ... دمّون إنّا معشر يمانون

(١) الاغاني جـ٩ ص ٨٧

م قال : ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً ،لاصحو اليوم ولاسكر غداً. اليوم خمر وغداً أمر . فذهبت مثلا .ثم قال :

خليليّ لافي اليوم مصحىً لشارب ولافي غد إذ ذاك ماكان يشرب

ثم شرب سبعا، فلما صحا آلى أن لايأكل لحما ولايشرب خمراً ولايدهن بدهن ولايصيب امرأة ،ولايغسل رأسه من جنابة حتى يدرك ثأره، فلما جنّه الليل رأى برقاً فقال:

أرقت لبرق بليل أهل يضيء سناه بأعلى الجبل » (١)

إلى آخر القصيدة وروى الهيثم عن اصحابه : «أن أمر القيس لما قتل أبوه كان غلاما قد ترعرع :وكان في بني حنظلة مقيماً لأن ظئره كانت امرأة منهم، فلما بلغه ذلك قال:

يالهف هند إذ خطئن كاهلا القاتلين الملك الحلا حلا

تالله لايذهب شيخي باطلا ياخير شيخ حسبا ونائلا

وخيرهم — قد علموا — فواضلا يحملننا والأسل النواحلا

وحيّ صعب والوشيج الذابلا مستنفرات بالحصى جوافلا» (٢)

ونحن لسنا مع الرواية الإخيرة وانما مع الرواية الأولى فقد تواترت في كتب الأدب على الرغم من اختلاف الرواية فيها وهن اقرب إلى المنطق والمعقول .وهي لم تخل من فن القص وملح الرواية .

وبعد أن علم بنو أسد استعداد أمريء القيس لقتالهم، قدم اليه رجال من قبائل بني أسد كهول وشبان.فلما علم بمكانهم أمر بانزالهم وتقدم باكرامهم والافضال عليهم. واحتجب منهم ثلاثا، فسألوا من حضرهم من رجال كندة. فقال: هو في شغل باخراج مافي خزائن حجر من السلاح والعدة . فقالوا

(٢،١) الاغاني — ٩ ص ٨٧—٨٨ ، ٨٨—٨٩

أللهم غفراً إنما قدمنا في أمر نتناسى به ذكر ماسلف ونستدرك به مافرط ، فليبلغ ذلك عنا. فخرج اليهم في خف وعمامة سوداء وكانت العرب لاتعتم بالسواد إلاّ في الترات. فلما نظروا اليه قاموا له، وبدر اليه قبيصة بن نعيم: إنك في المحل والقدر والمعرفه بتصرف الدهر وماتحدثه أيامه وتنتقل به أحواله. بحيث لاتحتاج إلى مبصّر واعظ ولاتذكرة مجرب ولك من سؤدد منصبك وشرف أعراقك وكرم أصلك في العرب محتمل يحتمل ماحمل عليه من إقالة العثرة ورجوع عن هفوة،ولاتتجاوز الهمم إلى غاية الا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأي وبصيرة الفهم وكرم الصفح الذي كان من الخطب الجليل الذي عمّت رزيئة نزار او اليمن ، ولم تخصص كندة دوننا للشرف البارع .كان لحجر التاج والعمة فوق الجبين الكريم وآخاه الحمد وطيب الشيم ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك ولفد يناه منه ولكن مضى به سبيل لايرجع أولاه على أخراه ولايلحق أقصاه أدناه . فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال : أما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتا واعلاها في بناء المكرمات صوتا، فقدمناه اليك بنسعه يذهب مع شفرات حسامك تنائي قصيدته فيقول رجل: امتحن بهلك عزيز فلم تستل شكيمته إلا بتسكينه من الانتقام، أو غداء بما يروح من بني أسد من نعمها فهي ألوف تجاوز الخسية فكان ذلك فداء رجعت به القضب إلى أجفانها لم يردده تسبيط الإحن على البراء ، واما أن توادعنا حتى تضع الحوامل فنسدل الأزر ونعقد الخمر فوق الرايات.

فبكى امرؤ القيس ساعة ثم رفع رأسه فقال: لقد علمت العرب أن لاكفء لحجر في دم. وإني لن اعتاض به جملاً او ناقةً فاكتسب بذلك سبّة الأبد وفتّ العضد ،وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة في بطون امهاتها ولكي اكون لعطبها سببا. وستعرفون طلائع كندة بعد ذلك: تحمل القلوب حنقا فوق الأسنة علقا:

اذا جالت الخيل في مأزق تدفع فيه المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون ؟ قالوا بل ننصرف بأسوأ الاختيار وأبلى الاجترار لكروه وأذيّة ، وحرب وبليّة ثم نهضوا عنه وقبيصة يقول متمثلا:

لعلك ان تستوخم الموت أن غدت كتائبنا في مأزق الموت تمطر

فقال امرؤ القيس : لا والله لاستوخمه ، فرويدا ينكشف لك وجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير ، ولقد كان ذكر هذا أولى بي اذ كنت نازلا بربعي ولكنك قلت فأجبت .

فقال قبيصة : ماتتوقع فوق قدر المعاتبة والاعتاب : فقال : امرؤ القيس: فهو ذاك (١). ارتحل امرؤ القيس حتى نزل بكرا وتغلب فسألهم النصر على بني أسد ، فبعث العيون عليهم فنذروا بالعيون ولجأوا إلى بني كنانة . وكان الذي انذرهم بهم علباء بن الحرث . فلما كان الليل قال لهم علباء: يامعشر بني أسد تعلمون والله أن عيون امرؤ القيس قد أتتكم ورجعت اليه بخبركم فارحلوا بليل ولا تعلموا بني كنانة ، ففعلوا ، واقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب حتى انتهى إلى بني كنانة وهو يحسبهم بني اسد ووضع السلاح فيهم . وقال يالثارات الملك ! يالثارات الهمام ! فخرجت اليه عجوز من بني كنانة فقالت : أبيت اللعن ، لسنالك بثأر ، فنحن من كنانة فدونك ثأرك فاطلبهم فان القوم قد ساروا بالأمس ، فتبع بني أسد فغاتوه ليلتهم . فقال في ذلك :

الا يا لهف هند اثر قوم هم كانوا الشفاء فلم يصابوا (٢)

وقاهر جدهم ببني أبيهم وبالأشقين ما كان العقاب

وافلتهن علباء جريضا ولو أدركنه صفر الوطاب

وروي أنه قال ايضا مهدداً بني أسد:

---

(١) الاغاني جـ ٩ ص ١٠٣ — ١٠٤

(٢) شرح الديوان ص ٥٠ — ٥١

يالهف هند إذ خطئن كاهلاً ... تالله لايذهب شيخي باطلا (١)
حتى أبير ما لكا وكاهلا ... القاتلين الملك الحاحلا
خير معد حسباً ونائلا ... وخيرهم قد علموا شمائلا
نحن جلبنا القرّح القوافلا ... يحملننا والأسل النواهلا
وحيّ صعب والوشيج الذابلا ... مستشغرات بالحصى حوافلا

يستشرف الأواخر الأوائلا

فأجابه عبيد بن الابرص الاسدي متحديا :

ياذا المخوفنا بقتل ... أبيه إذلالا وحينا
أزعمت أنك قد قتلت ... سراتنا كذبا وميتا
هلاّ على حجر بن أم ... قطام تبكي لا علينا
أنّا اذا عضّ الثقاف ... برأس صعدتنا لوينا
نحمي حقيقتنا وبعض ... القوم يسقط بين بينا؟
هلاّ سألت جموع كندة ... يوم ولوا أين أينا
ايام نضرب هامهم ... بيواتر حتى انحنينا
وجموع غسان الملوك ... أتينهم وقد انطوينا
نحن الألى فاجمع جمو ... عك ثم وجههم إلينا
واعلم بأن جيادنا ... آلين لايقضين دينا
ولقد أبحنا ما حجمت ... ولا مبيح لما حمينا

وتبع امرؤ القيس أسداً فادركهم ظهراً وقد تقطعت خيله وقطع أعناقهم العطش ،وبنو أسد حامّون على الماء. فنهد إليهم فقاتلهم حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم . وحجز الليل بينهم. وهربت بنو أسد فلما أصبحت بكر وتغلب أبوا أن يتبعوهم وقالوا له: لقد أصبت ثأرك .فقال : والله مافعلت ولا أصبت من بني كاهل ولامن غيرهم من بني أسد أحدا. فقالوا : بلى ولكنك رجل

(١) م. س ص ١٥٤ - ١٥٦

مشؤوم. وكرهوا قتالهم بني كنانة وانصرفوا عنه. ومضى هاربا لوجهه حتى لحق بحمير فاستنصر أزد شنؤءة فأبوا أن ينصروه وقالوا: إخواننا وجيراننا فنزل بقيل يدعى مرثد الخير بن ذي جدن الحميري وكانت بينهما قرابة فاستنصره واستمده على بني أسد فأمده بخمسمائة رجل من حمير، ومات مرثد قبل رحيل امرىء القيس بهم، وقام بالمملكة بعده رجل من حمير يدعى قرمل بن الحميم وكانت أمه سوداء، فرّد امرأ القيس وطوّل عليه حتى هم بالانصراف، فقال امرؤ القيس:

وإذ نحن ندعو مرثد الخير ربنا وإذ نحن لاندعى عبيداً لقرمل

فأنفذ له ذلك الجيش وتبعه شذاذ من العرب واستأجر من قبائل العرب رجالا فسار بهم إلى بني أسد ومرّ بتبالة وبها صنم للعرب تعظمه يقال له ذو الخلصة فاستقسم عنده بقداحه وهي ثلاثة، الأمر والناهي والمتربص، فأجالها فخرج الناهي، ثم أجالها ثانية فخرج الناهي وهكذا للمرة الثالثة فجمعها وكسرها وضرب وجه الصنم وقال: مصصت بظر أمك لو أبوك قتل ماعقتني. ثم خرج إلى بني أسد وظفر بهم (١). وقتل قتلة أبيه وأنكى فيهم ألبسهم الدروع البيض محماة، وكحلهم بالنار وقال قصيدته:

يا دار ماويّة بالحائل وفالسهب فالخبتين من عاقل (٢)
صمّ صداها وعفا رسمها واستعجمت عن منطق السائل
قولا لدودان عبيد العصا ماغركم بالأسد الباسل
قد قرت العينان من مالك ومن بني عمرو ومن كاهل
ومن بني غنم بنه دودان إذ نقذف اعلاهم على السافل
نطعنهم سلكى ومخلوجة كرّك لأمين على نابل
إذ هنّ أقساط كرجل الدبا أو كقطا كاظمة الناهل

(١) الاغاني ج٩ ص ٩٢ - ٩٣
(٢) شرح الديوان ص ١٥١ - ١٥٢

حتى تركناهم لدى معرك أرجلهم كالخشب الشائل
حلت لي الخمر وكنت امرأ عن شربها في شغل شاغل
فاليوم أشرب غير مستحقب إثماً من الله ولا واغل

ويقال : أن امرأ القيس مااستقسم عند ذي الخلصة بعد ذلك بقداح حتى جاء امر الله بالاسلام وهدمه جرير بن عبدالله البجلي(١). وتدلنا هذه الرواية على أن امرأ القيس لم يكن متمسكاً بدين آباءه واجداده، وانه خفيف التدين لاهياً عنه بتشرب الحياة والانطلاق في أرجائها قبل مقتل والده ، وجاداً في الأخذ بثأر أبيه بعد مقتله.

وكان امرؤ القيس كما مر بنا لما بلغه قتل أبيه حجر آلى على نفسه ألاّ يمسّ رأسه غسل ولا يشرب خمراً حتى يثأر لأبيه ،فلما ظفر ببني أسد وأدرك ثأره حلّ له ماحرم على نفسه ،فقال :

قالت فطيمة حلّ شعرك مدحه أبعد كندة تمدحن قبيلا (٢)

وفطيمة هي ابنة عمه فاطمة التي طالما خاطبها بالتجلة والاحترام، وكان لاتصلح من النساء لمخاطبته بعد الوصول إلى ثأره والانتقام من بني أسد إلاّ امرأة بمستوى الانتصار يكنّ لها الحب والود .ولم نجد في شعره امرأة تحظى بهذه المكانة الكبيرة غير ابنة عمه فاطمة.

وهم الكرام بنو الخضارمة العلى لسميدع أكرم بذاك نجيلا
ياأيها الساعي ليدرك مجدنا ثكلتك أمك هل ترد قتيلا
سائل بنا ملك الملوك إذا التقوا عنا وعنكم لا تعاش جهولا
منا الذي ملك المعاشر عنوة ملك الفضاء فسل بذاك عقولا
وبنوه قد ملكوا خلافة ملكه شبان حرب سادة وكهولا
سائل بني أسد بمقتل ربّهم حجر بن أمّ قطام جلّ قتيلا

(١) الاغاني جـ٩ ٩٣
(٢) شرح الديوان ص ١٥٦ – ١٥٨

إذا سار ذو التاج المجان بجحفل ... لجب يحارب بالفلاة صهيلا
حتى أبال الخيل في عرصاتهم ... فشفى وزاد على الشفاء غليلا
أحمى دروعهم فسربلهم بها ... والنار كحّلهم بها تكحيلا
وأقام يسقي الراح في هاماتهم ... ملك يعلّ بشربها تعليلا
والبيض قنعها شديداً حرها ... فكفى بذلك للعدا تنكيلا
حلت له من بعد تحريم لها ... أو أن يمسّ الرأس منه غسولا
حتى أباح ديارهم فأبارهم ... فعموا فهم لايهتدون سبيلا

وألح المنذر في طلب امريء القيس ووجه الجيوش في طلبه من أياد وبهراء وتنوخ ولم تكن لهم طاقة، ومدة أنو شروان بجيش من الأساورة فسرحهم في طلبه (١) وتفرقت حمير ومن كان معه عنه، فنجا امرؤ القيس في عصبة من بني آكل المرار حتى نزل بالحرث بن شهاب من بني يربوع بن حنظلة ومع امريء القيس أدرع خمسة كن لبني آكل المرار يتوارثونها ملكا من ملك .فقلما لبثوا عند الحرث بن شهاب حتى بعث اليه المنذر مائة من أصحابه ووعده بالحرب إن لم يسلم اليه بني آكل المرار فأسلمهم، ونجا امرؤ القيس ومعه يزيد بن معاوية بن الحرث وأخته هند والأدرع والسلاح والمال (٢)، وقال يهجو بني حنظلة :

أبلغ بني زيد إذا ما لقيتهم ... وابلغ بني لبنى وأبلغ تماضرا(٣)
وأبلغ ولاقرك بني أبنة مقسر ... أفقرهم إني أفقر خابرا
أحنظل لو كنتم كراما صبرتم ... وحطّم ولايلغى التميمي صابرا

لجأ امرؤ القيس ومن معه إلى ابن عمته عمرو بن المنذر، وأمه هند بنت عمرو بن حجر آكل المرار، وكان عمرو يؤمئذ خليفة لأبيه المنذر ببقة وهي بين الأنبار وهيت ،فصلحه وذكر صهره ورحمه وأنه قد تعلق بحباله

(١)وقد قام بين دولتي المناذرة وكندة عداء قديم، ينظر/ محاضرات في تاريخ العرب ص ٨٦-٩٢
(٢) الاغاني ج٩ ٩٣
(٣) شرح الديوان ص ٩٢

ولجأ اليه فاجاره ومكث عنده زمانا ثم بلغ المنذر مكانه فطلبه، وانذره عمرو فهرب ونزل على سعد بن الضباب الايادي سيد قومه فأجاره ،وكانت أم سعد بن الضباب تحت حجر أبي امريء القيس فطلقها وكانت حاملا وهو لايعرف ،فتزوجها الضباب فولدت سعداً على فراشه فلحق نسبه به وكان قبله قد لجأ إلى هاني بن مسعود بن عامر أحد رؤساء بني شيبان فاستجاره فلم يجره وقال له أنا في دير الملك فقال امرؤ القيس يذكر ذلك :

يفاكهنا سعد وينعم بالنا ... ويغدو علينا بالجفان وبالجزر
ونعرف فيه من أبيه شمائلا ... ومن خاله ومن يزيد ومن حجر
سماحة ذا وبرّ ذا ووفاء ذا ... ونائل ذا إذا صحا واذا سكر(١)

وقال فيه بعد أن أجاره:

منعت الليث من أكل بن حجر ... وكاد الليث يودي بابن حجر
منعت فانت ذو منّ ونعمى ... على ابن الضّباب بحيث ندري
سأشكرك الذي دافعت عني ... ومايجزيك مني غير شكري
فما جار بأوثق منك جارا ... ونصرك للفريد اعزّ نصر (٢)

وقال يمدح سعد بن الضباب الايادي ويهجو هاني بن مسعود الشيباني (٣).

لعمرك ماقلبي إلى أهله بحر ... ولامقصر يوما فيأتيني بقر
الا إنما الدهر ليال وأعصر ... وليس على شيء قويم بمستمر
ليال بذات الطلح عند محجّر ... أحب إلينا من ليال على أقر
اغادي الصبوح عند هرّوفرتنا ... وليداً وهل أفنى شبابي غيرهر
لعمرك ماسعد بخلّة آثم ... ولانأناء يوم الحفاظ ولاحصر
لعمري لقوم قد نرى في ديارهم ... مرابط للامهار و العكر الدنر

(١) الاغاني ج٩ ص ٩٢ - ٩٤
(٢) شرح الديوان ص ٩١ - ٩٢
(٣) شرح الديوان ص ٨٣ - ٨٦

أحب إلينا من أناس بقنّة يروح على آثار شائهم النمر
لعمري لسعد بن الضباب إذا غدا أحب إلينا فأفرس حمر

وقال امرؤ القيس في سعد بن الضباب أيضا بعد أن أجاره وانزله في جبال طيء :(١)

تنكرت ليلى عن الوصل ونأت ورثّ معاقد الحبل
ولووا متاعهم وقد سئلوا بذل المتاع فضن بالبذل

* * * *

من كان يأمل عقر داري من أهل الأوّد بهاوذي الذّحل
فليأت وسط قبابه خيمي ويأت وسط خميسه رجلي
ياهل أتاك وقد يحدث ذو الود القديم مسمّة الدخل
إني لعمري ماانتميت فلم أعدل إلى بدلٍ ولامثل
لأخ رضيت به وشارك في الانساب والاصهارِ والفضل
ولمثل أسباب علقت بها يمنعن من قلق ومن أزل
لما سما من بين أقرن فالأجيال قلت فداؤه أهلي
همّ سيبلغه التمام فذا ظنّي به سينال أو يبلي
وأتى على غضفان فاختلفوا دين يجيء وهارب مجلي
ويحشّى تحت الغدر بوقدها بغضى الغريق فاجمعت تغلي

لقد تحول امرؤ القيس عن سعد بن الضباب خشية عليه من ان يطلبه المنذر فوقع في رجل أرض طيّ فنزل برجل من بني جديلة يقال له المعلى بن يتم ابن ثعلبه فأجازه ومنعه وكان المنذر بن ماء السماء يجد في طلبه فقال امرؤ القيس يمدح المعلى:

كأني اذا نزلت على المعلى نزلت على البواذخ من شمام
فما ملك العراق على المعلى بمقتدر ولا الملك الشآمي
أصدّ نشامى ذي القرتين حتى تولى عارض الملك الهمام
أقرّ حشا امريء القيس بن حجر بنو تيم مصابيح الظلام (٢)

(١،٢) شرح الديوان، ١٤٩ - ١٥٠ ، ١٨٠ - ١٨١

لبث امرؤ القيس عند المعلى واتخذ إبلا هناك. وكان بين امريء القيس وبين سبيع بن عوف أحد بني طهية وشيجة قربى .فنزل عليه سبيع وسأله فلم يعطه شيئاً فذمه سبيع بقوله :

إذا ما نزلنا دار آل مغرز ... بليل فلا يخلف عليها الغمام(١)
مغرز أبكار اللقاح إذا شتا ... وضيفك جار البيت لأياً ينام

فرد عليه امرؤ القيس بقصيدةطويلة :

لمن الديار غشيتها بسحام ... فعمايتين فهضب ذي إقدام
فصفا الأطيط فصاحتين فغاضر ... تمشي النعاج بها مع الآرام
دار لهند والرباب وفرتنا ... وليس قبل حوادث الأيام
عوجا على الطلل المحيل لعلنا ... نبكي الديار كما بكى ابن حذام
أبلغ سبيعاً إن عرضت رسالة ... أني كهمك إن عشوت أمام
فاقصر إليك من الوعيد فانني ... مما ألاقي لا أشد حزامي
وأنازل البطل الكريه نزاله ... وإذا أناضل لا تطيش سهامي
وأنا المنبه بعد ماقد نوّموا ... وأنا المعالى صفحة النّوام
وانا الذي عرفت معدّ فضله ... ونشدتُ عن حجر بن أم قطام
خالي ابن كبشة قد علمت مكانه ... وأبو يزيد ورهطه أعمامي
وإذا أذيت ببلدة ودعتها ... ولا أقيم بغير دار مقام

ومن خلال فخره ندرك سوء حالته الاقتصادية ومعاناته للاضطهاد الذي كان يشعر به من ملاحقة المنذر بن ماء السماء له، وهو لم يعط سبيعاً لاعن بخل وامساك بل خشية مما يخبيء له الدهر وهو الذي لاقى الكثير من تقلباته وأهواله .

وقد غدا قوم من بني جديلة يقال لهم بنو زيد فطردوا إبل امريء القيس، وكانت له رواحل مقيدة عند البيوت خوفاً من أن يدهمه أمر ليسبق عليهن

(١) م. س ، ١٧٥ – ١٧٩

فخرج حينئذ فنزل ببني نبهان من طيء، فخرج نفر منهم فركبوا الرواحل ليطلبوا له الابل فأخذنهن جديلة فرجعوا إليه بلاشيء فقال في ذلك :

واعجبني لـه مشي الحزقّة خالد كمشي أتان حلئت بالمنـاهـل
فـدع عنك نهباصيح في حجراته ولكن حديث ماحديثاً الرواحل (١)

وتروى الحادثة (٢) على أن امرأ القيس نزل على خالد بن سدوس بن أصمع النبهاني فأغار عليه باعث بن حويص الجديلي الطائي في رجال معه فذهبوا بابله ،فلما علم امرؤ القيس أخبر جاره خالداً ،فقال له خالد: اعطني رواحلك ألحق بها القوم فأرد إبلك ؟ فأعطاه رواحله فركبها خالد. فلما أدركهم قال : يابني جديلة. أغرتم على جاري فردوا اليه ابله؟ . فقالو : ماهو بجار ،فقال: بلى والله ماهذه الأبل التي معكم إلاّ كالراحل التي تحتي ، فقالوا : أكذلك ؟. فرجعواإليه فانزلوه عنها وذهبوا بها أيضاً فلما عاد إلىامرىء القيس بهذه الحال تحول عنه إلى جارية بن مرّ الثعلبيفأجاره وأكرمه .فقال يمدحه وبني ثعل :

دع عنك نهباً صيح في حجراته ولكن حديثاً ما حديث الرواحل
كـأن دثـاراً حلّقـت بلبونة عقاب تنوفى لاعقاب الفواعل
تلعّـب ياعـث بذمـة خـالد واودى عصام في الخطوب الأوائل
وأعجبني مشي الحزّقـة خالد كمشي أتان حلئت في المناهل
أبـت أجأ أن تسلم العام جارها فمن شاء فليـنهض لها من مقاتل
تبيت لبونـى بالقريـّة أمّنا وأسرحها عبّا بأكناف حائـل
بنو ثعل جيرانهـا وحماتهـا وتمنع من رماة سعد ونائل
تلاعب أولاد الوعول رباعها دوين السماء في رؤوس المجادل
مكللّـة حمـراء ذات أسرّة لها حبك كأنها من حبائـل

(١) الأغاني جـ ٩ ص ٩٤
(٢) شرح لمعلقات ص ١٥٢ ١٥٤

ففرقت عليه بنو نبهان فرقاً من معزى يحلبها فأنشد يقول (١) :

الا إلاّ تكن إبـل فمعـزى كأن قـرون جلّتـها العصيّ
تربع بالستار ستـار قـدر إلى غسل فجـادلهـا الـدليّ
إذا قام حالبـهـا أرنـت كأن الحـيّ بينهـم نعـيّ
تروح كأنها ممـا أصابـت معلقـة بأحقيهـا الدلـيّ
فتملأ بيـتنا أقطـا وسمـنـا وحسبك من غنى شبع وريّ

ومكث امرؤ القيس عند طيء فترة طويلة وتزوج فيهم .وقد روى الميداني عن المفضل الضبي أن امرأ القيس كان مفركاً لاتحبه النساء ولاتكاد امرأة تصبر معه تزوج امرأة من طيء فابتنى بها فابغضته من تحت ليلها وكرهت مكانها معه فجعلت تقول:

ياخير الفتيان أصبحت ،فيرفع رأسه فيرى الليل كما هو ،فتقول المرأة: أصبح ليل.فلما أصبح قال لها : قد علمت ماصنعت الليلة .وقد عرفت أن ان ماصنعت كان كراهية مكاني في نفسك فماذا كرهت مني . فسكتت فألح عليها فقالت : كرهتك لأنك ثقيل الصدر ،خفيف العجز ،سريع الاراقة ،بطيء الافاقة (٢) .

وروى الاصمعي ان المرأة الطائية هي ام جندب . (٣) وان علقمة بن عبدة نزل بامرى القيس فتذاكر الشعر وادعاه كل واحد منهما على صاحبه، فقال علقمة بن عبدة :قل شعراً تمدح فيه فرسك والصيد واقول مثله ، هذه الحكم بيني وبينك .

فقال امرؤ القيس :

خليلي مرّا بي عـلى ام جنـدب لنقضي لبانات الفؤاد المعذب(٤)
فانكما ان تنظراني سـاعـة من الدهر تنفعني لدى امجندب

(١) شعراء النصرانية قبل الاسلام ج١/ ص ٢٢
(٢) الاغاني ج٩ ص ٩٣
(٣-٤) شرح الديوان، ٣١، ٣١ - ٤١

وقال علقمة قصيدته التي مطلعها :

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقا كل هذا التحبب(١)

فلما فرغ منها فضلته ام جندب على امرىء القيسى فقال لها: بما فضلته عليّ . فقالت: فرس ابن عبدة اجود من فرسك قال : وبماذا .قالت : سمعتك زجرت وضربت وحركت وهو قولك :

وللساق ألهـــوب وللسوط درة وللزجر منه وقع اهوج متعب

بينما ادرك فرس علقمة ثانيا من عنانه. وهو قوله :

فأقبل يهوى ثانيا مـــن عنانـــه يمـــر كمرّ الرائح المتحلب

فغضب امرؤ القيس على ام جندب وطلقها . وقيل ان علقمة خلف عليها بعد ذلك فسمي علقمة الفحل .

ويظهر الاختلاف في هذه الرواية، فمن يمعن النظر في مقدمة قصيدة امرىء القيس يدرك بان زوجا لايمكن ان يتحدث بهذا الاسلوب عن زوجته وكأنه يتحدث عن امرأة يعاشرها لازوجة يصونها. ومن يستمع الى حديثها معه ليلة زواجهما، يتبين الاختلاف الكامن فيه" فلا يمكن لامرأة حرة ان تتحدث الى زوجها مثل هذا الحديث وفي الليلة الاولى لدخوله عليها وانما هو حديث امرأة متمرسة في معاشرة الرجال. اما حديث المحاكمة بينه وبين علقمة فهو مختلف اصلا فلماذا يلجأ الى امرأة لامعرفة لها بالشعرلتحكم بينهما وهما شاعران كبيران يمكنهما ان يلجآ الى محكمين من العارفين بالشعر والخابرين له ومن اين لها المقدرة على الحكم بهذه الدقة بيتهما وهي لاتعرف شيئا عن الشعر واصوله ومداخله ؟ . اما السبب في تسمية علقمة بالفحل « كان للتفرقة بينه وبين شخص آخر كان يسمى علقمة الخصي (٤) »

---

(١) شرح الديوان، ٤٢ – ٤٧ .

(٢) تاريخ الادب تاريخ الجاهلي ص ٥٦ – ٥٧

ونعتقد ان الدافع لهذه الرواية المختلقة هو دافع ديني ، يعاقب فيه الراوية المسلم امرأ القيس على سلوكه في شبابه بان تعافه زوجاته لانه مفرك او كريه الرائحة ويخلف غيره على زوجاته لان زو جاته لايطقنه ويضعن أعينهن على غيره من الرجال . فقد جنت يداه الاعاصير لانه كان قد زرع الرياح . وقد اعتدي عليه بمثل ما اعتدى . ولذلك جاء شكنا في هذه الرواية واعتقادنا بأنها موضوعة مثل الروايات الاخرى التي وضعت عند الحديث عن سيرته .

خرج امر ؤ القيس ونزل بعامر بن جوين واتخذ عنده ابلا ، وعامر يومئذ احد الخلعاء الفتاك قد تبرأ قومه من جرائره .فكان عنده ماشاء الله. ثم هم ان يغلبه على اهله وماله ففطن امرؤ القيس بشعر كان عامر ينطق به وهوقوله:

فكم بالصحيح من هجان مؤبله تسير صحاحـا ذات قيد ومرسلـه
اردت بها فتكا فلم ارتمض له ونهنهت نفسي بعد ما كدت أفعله

فلما عرف امرؤ القيس ذلك منه وخافه على نفسه واهله وماله ، تغفله وانتقل الى رجل من بني ثعل يقال له حارثة بن مر فاستجار به فوقعت الحرب بين عامر وبين الثعلي فكانت في ذلك امور كثيرة وعندما شعر امرؤ القيس ان الحرب قد وقعت بين طيء من اجله ،خرج من عندهم فنزل برجل من بني فزارة يقال له عمرو بن جابر بن مازن :فطلب منه الجوار حتى يرى ذات غيبة . فقال له الفزارى : يا ابن حجر اني اراك في خلل من قومك وانا انفس بمثلك اهل الشرف ،وقد كدت بالامس تؤكل في دار طيء واهل البادية اهل بر لا اهل حصون تمنعهم،وبينك وبين اهل اليمن ذؤبان من قيس أفلا ادلك على بلد فقد جئت قيصر وجئت النعمان فلم ارلضيف نازل ولا لمجتهد مثله ولا مثل صاحبه، قال : من هو واين منزله؟ قال: السموأل بتيماء وسوف اضرب لك مثله هو يمنع ضعفك حتى ترى ذات غيبك وهو في حصن حصين وحب كبير . فقال له امرؤ القيس: وكيف

لي به ؟ قال :اوصلك الى من يوصلك اليه فصحبه الى رجل من بني فزارة يقال له الربيع بن ضبع الفزارى ممن يأتي السموأل فيحمله ويعطيه . فلما صار اليه قال له الفزارى: ان السموأل يعجبه الشعر . فقال امرؤ القيس :

طرقتك هند بعد طول تجنب وهناً ولم تك قبل ذلك تطرق

وهي قصيدة طويلة واظنها منحولة لانها لاتشاكل كلام امرىء القيس والتوليد فيها بيّن وما دوّنها في ديوانه احد من الثقات واحسبها مما صنعه دارم لانه من ولد السموأل ومما صنعه من روى عنه من ذلك (١).

وقد وفد الفزاري بامريء القيس إلى السموأل ،فلما كانوا ببعض الطريق إذ هم ببقرة وحشية مرميّة ،فلما نظر إليها أصحابه قاموا فذكوها .فبينما هم كذلك إذا هم بقوم قناصين من بني ثعل.فقالوا لهم من أنتم؟ فانتسبوا لهم فاذا هم من جيران السموأل فأنشد امرؤ القيس قصيدته :

رب رام من بني ثعل متلج كفيه في قتره

• • • •

فهو لا تنمى رميته ما له لا عدّ من نفره

مطعم للصيد ليس له غيرها كسب على كبره (٢)

ويبدو أن امرأ القيس قد لاقى من بني ثعل حسن الجزاء وطيب الاقامة وكرم الوفادة حيث قدم أكثر مديحه إليهم. فقد مدح ابني زهير من بني سلامان بن ثعل (٣) :

أرى إبلي والحمد لله أصبحت ثقالا إذا ما استقبلتها صفورها

رعت بحيال ابني زهير كليهما معاشيب حتى ضاق عنها جلودها

ومدح ابا حنبل الثعلي وقومه لأنه أحسن وفادته وأجاره بأبيات مطلعها (٤).

أحللت رحلي في بني ثعل إن الكريم للكريم محل

(١) الاغاني جـ٩ ص ٩٦ – ٩٧ .

(٢) الاغاني جـ٩ ص ٩٧ – ٩٩ .

(٣) شرح الديوان ص ٦٤ .

(٤) م . س ص ١٦١

ومدح بني ثعل وقد نزل في ديار طيء فأكرموه وحموه (١) بقطعة شعرية مطلعها :

واثعـــلا وأيـــن منـــي بني ثعل الا حبذا قوم يحلـــون بالجبل

وقد مضى بنو ثعل بامريء القيس حتى قدموا على السموأل فأنشده الشعر وعرف لهم حقهم، فأنزل المرأة في قبة آدم، وأنزل القوم في مجلس له براح، فكان عنده ماشاء الله . ثم طلب اليه أن يكتب له إلى الحرث بن أبي شمر الغساني بالشام ليوصله إلى قيصر فاستنجد له رجلا. واستودع عنده المرأة والأدرع والمال . وأقام معها يزيد بن الحرث بن معاوية ابن عمه (٢) .

ونحن نشك فيما ورد في بعض كتب الأدب عن رفض السموأل تسليم وداتع امريء القيس حتى عرض ولده للقتل أمام عينيه بسبب أمانته (٣) فلو كانت هذه الحادثة صحيحة لما أغفل امرؤ القيس ذكرها في شعره وهو الذي مدح كل من أجاره وأحسن وفادته فكيف ينسى فعلا شهماً وعظيماً كهذا الفعل .

وأكثر من ذلك لم يذكرها أحد من الرواة الثقات ولو كانت حقيقة واقعة لتناقل الرواة هذا الفعل العظيم. والقصة ولاشك وضعها اليهود بعد الاسلام لتعظيم مكانتهم قبل الاسلام وانتحلوها كما انتحلوا شعراً في السموأل والاشادة به كما سبق ذكره حول قصيدة (طرقتك هند بعد طول تجنب) .

ومضى امرؤ القيس إلى بلاد الشام وكان يصحبه الحارث بن حبيب السلمي وقد مات في الطريق فرثاه امرؤ القيس (٤)

ثوى عنـــد الودّيـــة جوف بصرى أبو الأيتـــام والكـــــل العجاف
فمن يحمي المضاف اذا دعـــاه ويحمل خطـــــة الأنس الضعاف

(١) م. س ص ١٦٠
(٢) الاغاني حـ٩ ٩٩
(٣) ينظر/ شعراء النصرانية قبل الاسلام ص ٣٥
(٤) شرح الديوان ص ١١٦

ومضى امرؤ القيس من بلاد الشام الى بلاد الروم. ويقال ان عمر وبن قميئة رافق امرأ القيس في سفره إلى القسطنطينيه . وكان عمرو بن قميئة من قدماء الشعراء في الجاهلية وأنه أول من قال الشعر من نزار . وهو أقدم من امريء القيس ولقيه امرؤ القيس في آخر عمره فأخرجه معه إلى قيصر عند ماتوجه اليه فمات في الطريق وسمته العرب (عمراً الضائع) لموته في غربته وفي غير أرب ولامطلب (١) .

وقد أمل امرؤ القيس ان يجد العون عند قيصر وهو في طريقه اليه وينتقم من بني أسد ويعيد مكانة آكل المرار في قومهم. فقال (٢) :

سمابك شوق بعد ما كان أقصرا ... وحلت سليمى بطن قوّ فعرعرا
كنانيّة بانت وفي الصدر ودها ... مجاورة غسان والحيّ يعمرا
بعينيّ ظعن الحيّ لما تحملوا ... لدى جانب الافلاج من جنب قيمرا

* * *

حمته بنو الربداء من آل يامن ... بأسيافهم حتى أقرّ وأوقرا
وأرض بني الربداء واعتمّ زهره ... وأكمامه حتى إذا ما تهصّرا
أطافت به جيلان عند قطاعه ... تردد فيه العين حتى تحيرا

* * *

الا هل أتاها والحوادث جمة ... بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا
تذكرت أهلي الصالحين وقد أتت ... على خملي خوص الركاب وأوجرا
فلما بدت حوران والآل دونها ... نظرت فلم تنظر بعينيك منظرا
تقطع أسباب اللبانة والهوى ... عشية جاوزنا حماة وشيزرا

* * *

فدع ذا وسلّ الهم عنك بجسرة ... ذمول إذا صام النهار وهجّرا

* * *

(١) الاغاني ج١٦ ص ١٥٨ - ١٥٩
(٢) شرح الديوان ٦٦ - ٧٦

عليها فتى لم تحمل الأرض مثله ... أبرّ بميثـاق وأوفى وأصبـرا
ولو شاء كان الغزو من أرض حمير ... ولكنه عمدا إلى الروم أنفـرا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقـن أنا لاحـقان بقيصرا
فقلت له لاتبكي عيناك إنـما ... نحاول ملكا أو تمـوت فنعذرا

• • • •

اذا قلت روحنا أرنّ فـرانـق ... على جلعد واهي الاباجيل أبترا
لقد انكرتني بعلبك وأهـلـها ... ولابن جريج في قرى حمص أنكرا

• • • •

أرى أم عمرو دمعها قد تحدرا ... بكاء على عمرو وماكان أصبرا
اذا نحن سرنا خمس عشرة ليلة ... وراء الحساء من مدافع قـيصرا
اذا قلت هذا صاحب قد رضيته ... وقرّت له العينـان بدلـت آخرا
كذلك جدي ماأصاحب صاحـبا ... من النـاس الاخانني أو تغيـرا
وكنا أناساً قبل غزوة فـرمـل ... ورثنا الفتى والمجد أكبرا أكبرا

• • • •

فهل أنا ماش بين شرط وحيّة ... وهل انا لاق حيّ قيس بن شمرّا
تبصر خليلي هل ترى ضوء بارق ... يضيء الدجى بالليـل عن سر حميرا
أجار قسيساً فالطـهاء فمسـطحاً ... وجوّاً فروّى نخل قيس بن شمرّا
وعمرو بن درماء الهمـام اذاغدا ... بذي شطب عضب كشية قسورا

ونلمس مشاعر الأسى في نفس امريء القيس وتبدل الزمان عليه والنفس الكبيرة التي يحملها بين جنبيه والذي أخذ عهدا على تحقيق هدفه في الثأر لوالده من قاتليه واسترجاع مكانة آل آكل المرار إلى ماكانت عليه في الماضي. وهذا الهدف العظيم هو الذي دفعه للذهاب إلى قيصر لعله يلقى العـون والمساعدة منه .

ويروي ابو الفرج الاصفهاني عن ابن الكلبي أن قيصر الروم رحب بامريء القيس واكرمه اكراما عظيما وانزله منزلة كبيرة، فاندس رجل من بني

أسد يقال له الطماح وكان امرؤ القيس قد قتل اخا له: فأتى بلاد الروم واقام مستخفيا .

«وضم قيصر الى امريء القيس جيشا كثيفا وفيهم جماعة من ابناء الملوك وقال بعضهم لقيصر: إن العرب قوم غدر ولا تأمن أن يظفر بما يريد ثم يغزوك بمن بعثت معه. واكد ابن الكلبي أن الطماح قال لقيصر إن امرأ القيس غويّ عاهر وانه لما انصرف عنك بالجيش ذكر انه كان يراسل ابنتك ويواصلها، وهو قائل في ذلك شطراً يشهر بها بين العرب فيفضحها ويفضحك ،فبعث اليه حينئذ بحلة وشي مسمومة منسوجة بالذهب وقال له: إني أرسلت إليك بحلتي التي كنت ألبسها تكرمة لك،فاذا وصلت إليك فالبسها باليمن والبركة . واكتب اليّ بخبرك من منزل الى منزل.فلما وصلت اليه لبسها واشتد سروره بها فأسرع فيه السم وسقط جلده فلذلك سمّي ذا القروح، وقال في ذلك:

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبسني من مايلبسّ أبؤسا
فلو أنها نفس تموت سوّية ولكنها نفس تساقط أنفسا» (١)

وذكرت له قصائد قالها وهو عند قيصر يظهر فيها الافتعال وصنع الرواة وهي بعيدة عن روح شعر امريء القيسى هذا بالاضافة إلى أنها مشكوك في أمرها ونسبها إلى أمريء القيس (٢). وعدها آخرون من المنحول وهي من زيادات ملحق الطوسي (٣) :

أأذكرت نفسك مالن يعودا فهاج التذكر قلبا عميدا

وان امرأ القيس دخل الحمام مع قيصر فزعموا انه وصفه قائلا (٤)

إني حلفت يمينا غير كاذبة أنك أقلف الاماجنى القمر

(١) الاغاني حـ٩ ٩٩ – ١٠٠
(٢) شرح الديوان ص ٦٤
(٣) الديوان ص ٢٥١
(٤) شرح الديوان ص ٩٣

ومن الجلي ان مثل هذا الكلام لايصدر عن امريء القيس لأنه يختلف تماما عن طبيعة شعره ونحن نعجب من عجب امريء القيس لعدم ختان قيصر ويهجوه لذلك.

وقد عدّ آخرون هذين البيتين من المنحول ايضا وهما من زيادات ملحق الطوسي (١). ونحن لانشك بشخوص امريء القيس إلى بلاد الروم. ويبدو انه مرض في طريقه إلى القسطنطينية ويظهر من خلال شعره انه أصيب بالجدري حيث يقول (٢):

لمن طلل دائر آيه ... تقادم في سالف الاحرس
وتنكره العين من حادث ... ويعرفه شغف الأنفس
فاما تريني وبي عرة ... كأني نكيب من النقرس
وصيرني القرح في جبة ... تخال لبيسا ولم تلبس
ترى أثر القرح في جلده ... كنقش الخواتم في الجرجس

وقوله:

ألما على الربع القديم بعسعا ... كأني أنادي أو أكلم أخرسا (٣)
فلو أن أهل الدار فيها كعهدنا ... وجدت مقيلا عندهم ومعرسا
فلا تنكروني إنني أنا ذاكم ... ليالي حلّ الحيّ غولا فألعسا
تأوبني دائي القديم ففلسا ... أحاذر ان يرتد دائي فأنكسا
فاما تريني لاأغمض ساعة ... من الليل الا ان أكب فأنعسا
وماخلت تبريح الحياة كما أرى ... تضيق ذراعي ان أقوم فألبسا
فلو أنها نفس تموت جميعة ... ولكنها نفس تساقط أنفسا
وبدلت قرحا داميا بعد صحة ... فياللك من نعمى تحولن أبؤسا

ويبدو ان القصيدة قد انتهت عند هذا الحد المنطقي وإلى نهاية مايريد الشاعر قوله. وان البيتين الأخيرين منحولان فهما لايمتان بصلة إليها لامن الناحية

---

(١) الديوان ص ٢٨٠
(٢،٣) شرح الديوان ص ١٠٢، ٩٧ - ٩٩

اللفظية ولامن الناحية المعنوية فالبيت الأول يقحم (الطماح) اقحاما غير مبرر والبيت الثاني حكمي من تلك الحكميات المتأثرة بالتجارب الحياتية وبآراء الأحناف والتي استمرت تقال وتورد في القصائد في العصر الاسلامي.

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبسني من دائه ما تلبسا
الا إنّ بعد اليوم للمرء قنوة وبعد المشيب طول عمر وملبسا

واشتد المرض على امريء القيس وهو بالقرب من أنقرة في طريقه إلى قيصر

الا أبلغ بني حجر بن عمرو وأبلغ ذلك الحيَّ الجديدا(١)
بأني قد هلكت بأرض قوم بعيدا عن ديارهم بعيدا
ولو أني هلكت بأرض قومي لقلتّ الموت حق لا خلودا
أعالج ملك قيصر كل يوم وأجدر بالمنية أن تقودا
بأرض الروم لانسب قريب ولا شاف فيسند أو يعودا
ولو صادفتهن على أسيس وحاقة إذ وردن بنا وروداً
على قلص تظل مقلدات ازمّتهن ما يعدقن عودا

ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدفنت في سفح جبل يقال له عسيب .فسأل عنها فأخبر بقصتها فقال :

اجارتنا إن المزار قريب واني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب(٢)
فان تصلينا فالقرابة بيننا وان تصدمينا فالقريب غريب
أجارتنا مافات ليس يؤوب وما هو آت في الزمان قريب
وليس غريباً من تنادت دياره ولكن من وارى التراب غريب(٣)

ونحن نرى أن الابيات الثلاثة الأخيرة منتحلة لانها لاتتفق مع طبيعةشعر امريء القيس وفيها روح اسلامية .

(١) م. س ، ٦٢ – ٦٣
(٢) الاغاني ٩ – ١٠٠
(٣) شرح الديوان ٥٦

وقال عند احتضاره : رب طعنة متعنجرة وجفنـــة متـــحيّرة
وقصيدة محبرّة تبقـى عذاباً نقـرة (١)

ومما يؤكد رأينا في عدم وصول امريء القيس إلى قيصر انه لم يذكرلنا شيئاً عن مقابلته لقيصر فيما حفظ من شعره ووصل الينا. وان رواية لقائه مع قيصر وما تبعها من ظهور الطماح والحلة المسمومة رواها ابن الكلبي وهو مشكوك في رواياته .كما أن الافتعال واضح فيها . فلا يمكن أن يثق قيصر بامـريء القيس كـل تلك الثقة ثم يورده مـورد التهلكة بالحـلـة المسمومة لمجرد وشاية من شخص يظهر فجأة في قصر قيصر من دون مقدمات ويثق قيصر بوشايته من دون ثقة بالشخص نفسه أو معرفة سابقة به. وهذا التلفيق هو الذي دفع طه حسين إلى الأعتقاد بأن حياة امريء القيس انما هي تمثيل لحياة عبد الرحمن بن الأشعث الكندي الذي ثار على الحجاج وحاول الاستعانة بملك الترك وأخفق في مسعاه (٢). وهذا ما دفع البعض إلى الربط بين حياة امريء القيس واسطورة أوديب «وتأتي نهاية امريء القيس مطابقة لنموذج ــ راجلان ــ وهو موته على قمة جبل عسيب بعد عودته من قيصر الروم» (٣) .

ولم يذكر المؤرخون البيزنطيون شيئاً عن امريء القيس ومقابلته لقيصر وما رواه لويس شيخو عن نونوز وبركوب وغيرهما (٤) . فيه اضطراب وتناقض «وقد ورد عند بروكوبيوس اسم شخص يدعى قيسا اقترن اسمه بغزو الحبشة لليمن عام ٥٢٤م. ويقال ان القيصر طلب منه ان يقود الجيوش ضدّ الفرس. وذكر نونوسوس ان جوستنيان كلفّه بالسفارة لديه. ومن ثم ظن كوزان دي برسفال ان قيسا المذكور عند هذين المؤرخين هو امرؤ القيس وخاصة حين رآه يزور القسطنطينية، واكبر الظن ان هذا مجرد تشابه في الأسماء...

(١) الديوان ص ٣٤٩
(٢) في الشعر الجاهلي ١٣٣ ــ ١٣٧
(٣) الشعر والمجتمع ١٠٧ ــ ١٠٨
(٤) شعراء النصرانية ص ٣٥

لندل على أن اخبار امريء القيس اختلطت في ذاكرة العرب باخبار امريء القيس اللخمي،وكنا ندفع هذه القصة الطويلة التي نسجت حول مقتله»(١). وقد ولد امرؤ القيس في أواخر القرن الخامس أو أوائل القرن السادس بعد الميلاد. وتوفي بين سنتي ٥٣٩، ٥٦٥م (٢) .

ويعلل البهبيتي وصول امريء القيس إلى قيصر بقوله :«قصة الطماح، ودسه لامريء القيس لدى قيصر من القصص الشعبي ما في ذلك شك ولكن التاريخ في القصة هو أن غسطينوس كان يحالف آباء امريء القيس، ويعتمد على سلطانهم في قلب الجزيرة. والتاريخ ايضا انه أمده بجيش فصل به، ولكن الجيش لم يصل بلاد العرب ولا وصل قائده، لأن قائده مات بقروح كست جسده نسبتها القصة إلى حلة قيصر الموشية المذهبة المسمومة، فما علة ذلك؟ في سنة ٥٢٥م أي في العام الثاني لغزو الأحباش الثاني لليمن، أو في العام نفسه أصابت الامبراطورية الرومانية الشرقية زلازل مروعة ، خربت الرها، وبمباي بوليس، وكورينتا، وديراخيوم ، وذهبت من جرائها انطاكية طعمة للنار والماء جميعا فلم يبق منها حجر على حجر ... أفلا يرجح أن يكون جيش الروم قد ردته هذه الزلازل التي أصابت الأنضول حيث مات امرؤ القيس ودفن؟ ولم لا يرجح أن قروحه تلك كانت أثراً من حروق اصابته في تلك الزلازل عينها؟ وقد يكون هذا هو الحق . ولقد أقام له الروم بعد ذلك تمثالاً في أنقرة ، رآه الخليفة المأمون بعيني رأسه في سفره اليها» (٣). ونحن على الرغم من احترامنا للتعليل والاستنتاج لا نتفق معه، وذلك لأن الكتب البيزنطية لم تذكر امرأ القيس بل قيسا (٤). واما ان يكون المأمون قد رأى تمثال امريء القيس عند قبره بالقرب من انقرة، فمن المحتمل ان يكون قيسا او اي امير آخر من الامراء العرب استعانوا بالقيصر لنجدتهم ومات

(١) العصر الجاهلي، ٢٤١ – ٢٤٢
(٢) تاريخ الادب الجاهلي ، ص ٥٧
(٣) تاريخ الشعر العربي ص ٣٤
(٤) شعراء النصرانية قبل الاسلام ، ص ٣٥

في طريق العودة قبل وصوله إلى بلاد العرب . وهذه الرواية تؤكدلنا اختلاط الروايات ، وانتحال رواية لقاء امريء القيس بقيصر ، وانتحال شخصية الامير العربي لامريء القيس ، هذا بالاضافة إلى ان الخليفة المأمون لا يعرف امرأ القيس شخصيا ليتمكن من تشخيص التمثال. هل هو لامريء القيس أم لأمير عربي يدعى قيسا، والذي ورد ذكره في الكتب البيزنطية .
كما ان امرأ القيس لم يذكر شيئا عن لقائه لقيصر في شعره، وهو الشاعر الحساس الذي يكاد ان ينفعل بكل حدث يمر بحياته وينقله شعراً بديعا، فكيف ينسى هذا اللقاء المهم بقيصر؟ ! وكيف لم تؤثر فيه مدينة القسطنطينية بحضارتها المتقدمة وجمالها الخلاب ؟ ! .

المصادر والمراجع

١ — الاغاني، ابو الفرج الاصفهاني علي بن الحسين ، م دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٧ .

٢ — الاغاني ، ابو الفرج الاصبهاني علي بن الحسين ، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة ١٩٧٦.

٣ — امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة ، ايليا حاوى، دار الثقافة،بيروت، ١٩٧١.

٤ — امير الشعراء في العصر القديم،محمد صالح سمك، م. النهضة ، القاهرة، بلا .

٥ — تاريخ الادب الجاهلي، علي الجندي، م. الانجلو مصرية،القاهرة، ١٩٦٩.

٦ — تاريخ الشعر العربي حتى اواخر القرن الثالث الهجري، نجيب محمد البهبيتي ، القاهرة، بلا.

٧ — ديوان امرىء القيس ، ت. ح. محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩.

٨ — شرح ديوان امرىء القيس، حسن السندوبي ، القاهرة، م. الاستقامة بلا.

٩ — شرح القصائد العشر، التبريزي ابو زكريا علي بن محمد بن الحسن ابن موسى الشيباني.م. محمد صبيح واولاده. بلا.

١٠ — شرح السبع الطوال الجاهليات، ابن الانباري ، ت.ح عبد السلام هارون، دار المعارف القاهرة، ١٩٦٣.

١١ — شعراء النصرانية قبل الاسلام، لويس شيخو، م. الكاثوليكية، بيروت، بلا

١٢ ــ الشعر والشعراء، ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم، دار الثقافة، بيروت، بلا.
١٣ ــ الشعر والمجتمع، عادل البياتي، الاسطورة والرمز في الادب الجاهلي، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٤.
١٤ ــ العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢.
١٥ ــ في الشعر الجاهلي، طه حسين، م. دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٢
١٦ ــ مجلة آداب الرافدين، عمر الطالب، صراع الحياة والموت في شعر امرىء القيس، العدد٩، مجلة كلية الآداب، ١٩٧٨.
١٧ ــ مجلة المجمع العلمي العراقي، عمر الطالب، رحلة في معلقة امرىء القيس، المجلد ٢٩، بغداد، ١٩٧٨
١٨ ــ محاضرات في تاريخ العرب، صالح احمد العلي، مؤسسة دار الكتب، الموصل، ١٩٧٩.
١٩ ــ المزهر، السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، بلا.